

8

قصص الصحابة

الفتي
الحكيم

سلوى العناني

دار اللطائف
للطباعة والنشر

الفتى الحكيم

(مصعب بن عمير)

[لقد رأيت مُصعباً هذا .. وما بمكة فتى أنعمَ عند أبويه منه ،
ثم ترك ذلك كله حياً لله ورسوله] صدق بهول الله ﷻ

هو فتى من أبهى فتيان قريشٍ مظهرًا وأكثرهم أناقةً
ووسامةً .. وهو فوق هذا من أحكم شباب جيله وأكثرهم
رزانةً ووقارًا ورجاحةً عقلٍ ..

وُلِدَ وشبَّ في أسرةٍ من أكثر أسر مكة ثراءً .. وكان
موضعَ تدليلٍ من أبويه فمنحه من أسباب الرفاهية والأناقة
كما منحته الحيلةً جميلَ القوامِ والبشرةِ والملامحِ ليصبحَ زينةً
المجالسِ ومضربَ الأمثالِ ..

هو (مصعب بن عمير) .. (مصعب الخير) .

ذهبَ (مصعب) في رحلةٍ صيدٍ خارجَ مكةَ .. ولما عادَ شعرَ
بأن شيئًا جَلَدًا قد حدثَ .. فالتاسُ يتكلمون .. يتهايمون
ويتصايحون .. والجميعُ يحكي عما حدثَ من يومينَ عَندما

اعتلى (عَمَدُ الْأَمِينِ) جَبَلَ الصِّفَا ونَادَى فِي الْقِبَائِلِ .. وَلَمَّا
اجْتَمَعَ النَّاسُ حَوْلَهُ قَالَهُ لَهُمْ : " إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً
وَأَمَّا النَّاسُ عَامَةً " وَأَنَّ مَصْعَبًا كَانَ شَابًا حَكِيمًا وَخَصِيفًا ..
فَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ أَكْثَرَ لِيَكُونَ حَكْمُهُ عَلَى الْأَمْرِ صَحِيحًا
وَسَلِيمًا . وَكَانَ لَا يَبْذُرُ أَنْ يَسْأَلَ .. فَسَأَلَ صَدِيقَهُ (جَبِيرَ بْنِ
مُطْعَمٍ) .. وَأَخْبَرَهُ الْأَخِيرُ أَنَّ (مُحَمَّدًا) قَالَ إِنَّهُ يَتَلَقَى وَحْيًا مِنْ
رَبِّهِ وَأَنَّهُ تَلَا بَعْضَ هَذَا الْوَحْيِ ..

فسأله (مصعب): وملا قل؟

وتلا جبير:

﴿قَلَّا نَذْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَيْهَا آخِرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُغْدِبِينَ وَأَسَدِرِ
عَشِيرَتِكَ الْأَقْرَبِينَ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ الْبَعْلُكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
فَإِنْ عَصَوْنَا فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾

[الشعراء : 213 - 215]

وتأمل (مصعب) هذا القول وتَعَجَّبَ .. إِنَّهُ حَدِيثٌ حَلِوٌ
طَلِيٌّ .. لَمْ يَسْمَعْ بِثَلْهِ مِنْ قَبْلٍ .. فَهَلْ هُوَ حَقًّا وَحْيٌ مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ .. لِمَا لَا ؟! إِنْ مُحَمَّدًا مَعْرُوفٌ بِالْأَمَانَةِ وَالصِّدْقِ مَعَ
النَّاسِ .. فَكَيْفَ يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ؟

راح (مصعب) يفكرُ وقد ملأ عليه هذا الأمرُ عقله وقلبه
فزهّد في الطعام .. وجفّه النوم .. وامتلاً رأسه بالأسئلةِ
وصمّم في الصباح أن يجذّ لأسئلتهِ الخائرة إجابةً شافيةً .

إلى دارِ الأرقم بنِ أبي الأرقم) فلدته فدمعه كما قاتته قلبه
فجلسَ بين يدي رسولِ الله يسأله ويسمع منه صادقَ
الحديثِ .. وقبلَ أن يغادرَ (مصعب) المكانَ كان قد نطقَ
بالشهادتينِ أمامَ رسولِ الله

كان (مصعبُ بنُ عمير) سيداً في قومه ، ثرياً ، مرهوبَ
الجانبِ ، فهو لا يخشى غضبَ سُلَطةِ قريشٍ من إسلامه ،
لكنه كانَ فقط يخشى غضبَ أمه (خُنَاسَ بنتِ مالكٍ) التي
كانت واحدةً من أثرياءِ مكةَ المعدودينِ يهابها سُلَطةُ قريشٍ
ويحسبون لها ألفَ حسابٍ وكانت امرأةً عنيدةً متطرفةً في
إيمانها بألفتها الحجريةِ التي تسجدُ لها وتحرضُ على
إرضائها .. لهذا فقد أخفى (مصعب) عنها إسلامه فكان
يصلي سراً ويتسللُ في المساءِ إلى (دارِ الأرقم) فيستزودُ من
لقاءِ الرسولِ الكريمِ بزيادةِ الإيمانِ . لكنه كانَ من المستحيلِ
أن يظلَّ الأمرُ سراً في مكةَ .. هذه المدينةُ التي اهتمت

جئناها بهذا الأمر العظيم - نزول الوحي على محمد -
وعلمت (خُتاس) بحبر تردد ابنها على (دار الأرقم) ..
وسألته وأنتها الإجابة : (لقد آمنتُ بالله الواحد الذي خلق
السموات والأرضَ والليلَ والنهارَ وجعلَ الحيةَ والموتَ) .

ووقف (مصعب) ثابتاً شامخاً مزهواً بإيمانه واتباعه لنور
الهدى.. وازدادت ثورة الأم وأمرت عبيدها أن يقيدوا ساقِي
ابنها وأن يُلقوا به في مكانٍ مظلم من البيت ..

ولم تهتز شعرةً من رأسِ الفتى المؤمنِ الذي أنارَ الإيمانُ
ظلمةَ محبتهِ والذي أشبعه ورواه ذكرُ الله.. فلم يجع ولم
يظمأ .. وانتظرَ رحمةَ الله ..

وجاءته رحمةُ الله فتمكن من الهربِ وانضمَّ إلى قافلةِ
المهاجرين إلى الحبشةِ إلى أن أُذنَ اللهُ لهم بالعودةِ إلى مكةَ
حيثُ كان رسولُ الله وصحبه يواصلون دعوتهم للمدينِ
الحقِّ ..

وما أن دخلَ (مصعبُ بنُ عمير) مكةَ حتى قصَدَ النبيَّ
الكرِيمَ.. يُلقى في أحضانِه همومَ رحلتهِ ويتزوَّد من حديثه
ومن نصيحته .. وجلسَ (مصعبُ) وسَطَ رفائقه المسلمينِ

الذين تألوا لمظهره وثيابه.. وشعر الرسول بما يدور في
أذهانهم.. فأشرق وجهه الشريفُ بابتسامةٍ عذبةٍ وقل:
(لقد رأيت مصعباً هذا، وما بمكة فتى أنعمُ عند أبيه
منه.. ثم ترك ذلك كله حباً لله ورسوله).

وكانت عودةً (مصعبٍ) إلى مكة فرصةً كي تحاول أمه أن
ترثه عن دينه.. لكن هيهات للقلبِ العامرِ بنورِ الله أن
يبحثَ عن مغرياتِ الدنيا وكان الفراقُ بين الفتى وأمّه..

كانت مجموعةً من أهلِ يثربَ قوامها اثنا عشرَ رجلاً قد
بايعوا الرسولَ - عليه السلامُ - عند العقبة ليكونوا نواةً
مسلمةً لمدينةٍ مباركةٍ (مَنورَةٍ) بنبيها.. وعاد هؤلاء ينشرون
دعوةَ الإسلامِ بين أهلِيهم.. واستجابَ الكثيرُ لدعوتهم..
لكنهم كانوا يحتاجون لفقيهٍ بينهم يعلمهم ويرثيهم
لصحيحِ الدينِ.. فأرسلوا إلى النبي أن (ابعثْ إلينا رجلاً
من أصحابك يفقهنا في الدينِ ويعلمنا القرآن) فمن هو
الرجلُ الذكيُّ التقى القويُّ الإيمانِ الحصيفُ الحافظُ لكتابِ
اللهِ فبعثُ الخَلْقُ حسنُ البيانِ الذي يصلحُ هذه المهمةُ!!

واختار النبيُّ (مصعبَ بنَ عميرٍ) لهذه السفارةِ وهناك مَنْ

هُمْ أَكْبَرُ مِنْهُ سَيِّئًا وَأَقْدَمُ إِسْلَامًا .. لَقَدْ وَجَّهَهُ أَهْلًا لَهُنَّ
الْمِهْمَةُ .

ويغادر (مصعبُ بنُ عُمير) مكةَ مرةً أخرى .. يغادر البلدَ
التي وُلِدَ فيها والتي عاشَ فيها صبيهُ وشبابه .. وتركها ليتولى
مهمةً جديدةً في سبيلِ الله .

لا بد أن (مصعبًا) كان مشغولاً بالهمة التي هو مقبلٌ
عليها فلم يشعرَ بمشقةِ السفرِ .. ولا بد أنه كان يفكرُ فيما
يمكنُ أن يلاقِي من صعابٍ ومشاقٍ .. لكنه كان - بغير شكٍّ -
- واثقًا من تأييدِ ربه له .. ولا بد أنه كان يستعيدُ نصائحَ
رسولِ الله ودعاة له ..

وعندما لاحت لخيْلُ يثربَ من بعيدٍ رفعَ (مصعبُ) كفيه
إلى السماءِ داعيًا ربه أن يوفِّقه إلى ما يحبُّ ويرضى .

واختار (مصعبُ) منزلَ (أسعدَ بنِ زُرارة) ليكونَ مقرًّا
لإقامته كما اختارَ صاحبَ البيتِ ليكونَ عونًا له في مهمته ..
ولم لا وهو أحدُ المبايعين في بيعةِ العقبةِ !!

لا بد أنها كانت مهمةً شاقةً وصعبةً فهو ليسَ أمامَ بناءِ

قديم يهدمه ويسني غيره على نسقٍ جديدٍ .. لكنه أمام
عقيدةٍ .. نعم .. عقيدة لها في نفوس أصحابها تاريخٌ
وذكرياتٌ وتقديسٌ وتكريمٌ فكيف يُستلُّ هذه العقيدة
المتأصلة ويضع مكانها عقيدةً أخرى ؟ .. إنها فعلاً مهمةٌ
صعبةٌ .

وتمضي الأيامُ (بمصعبِ بنِ عُميرِ) ينتقلُ بين الناسِ في
الدورِ والأسواقِ .. في أماكنِ العملِ وفي تجمعاتِ التجارة ..
يدعوهم إلى سبيلِ الله بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ ويجادلهم
بالتي هي أحسنُ .. وتثمرُ الكلماتُ المضيئةُ نوراً بعد نورٍ ..
وتتلاها قناديلُ الإيمانِ في القلوبِ قلباً بعد قلبٍ حتى يكاد
لا يخلو بيتٌ في يثربَ كلها من إنسانٍ يرددُ أن (لا إلهَ إلا
الله .. محمدٌ رسولُ الله) .. وعندما أتى موسمُ الحجِّ .. شهدت
الصحراءُ بين مكةَ ويثربَ قافلةً مباركةً يزيدُ عددُ أفرادها
على سبعينَ مسلماً تبلدُ تكبيرُها سكونَ الكونِ .. الله
أكبرُ .. الله أكبرُ .. لا إلهَ إلا الله ..

متاعبُ عقيدةٍ تعرضَ لها (مصعبُ بنُ عُميرِ) في أثناءِ
هذه المهمةِ الجليليةِ ، ومواقفُ سجَّلها التاريخُ بوقائعها

والخبري ابتلعها الأحداثُ فراحت في طَيِّ النَّسِيانِ ..
ولنقفَ هنا عندَ الموقفِ الذي أسلم فيه واحدٌ من أشرفِ
العربِ المعدودين هو (أسيد بن حضير) سيد الأوسِ
المعروفِ بالكرمِ والجودِ والشجاعةِ في إبداءِ الرأيِ
والاستبسالِ في الحربِ .

كان يوماً عادياً في حية (مصعب بن عمير) في (يثرب)..
فها هو مجلسٌ في منزلِ (أسعد بن زُرارة) يحيطه المسلمون ..
ويستمعون إليه قارئين للقرآنٍ ومُجيباً على الاستفساراتِ
مردداً لما عرفه من سنةِ رسولِ الله عليه السلام .. كان
المستمعون وكأن على رؤوسهم الطيرَ يتطلعون إلى وجهِ
(مُصعب) الذي أناره الإيمانُ ويستمعون إلى صوتهِ
الخاشعِ .. واقفين معه عندَ كُلِّ لفظٍ قرآني وعند كل توجيهِ
نبوي .

وبين الحينِ والحينِ .. يقطعُ سكونَ المكانِ طَرَقٌ خفيفٌ
على بابِ الدارِ يستأذنُ صاحبه في الدخولِ والانضمامِ إلى
مجلسِ الهدى والإيمانِ ، وفجأةً يسمعُ الحضورَ دقاً عتيقاً
متتابعاً .. وقامَ صاحبُ الدارِ يستطلعُ الأمرَ فإذا (بأسيد بن

خُصِيرَ) شاهراً حربته .. تفضح أساريرُ وجهه عن غضبه
وثورة .. وما أن رأى (مصعباً) وقد تحلَّقَ حوله مريدوه
ويستمعون إليه حتى صاح قائلاً : (ما جاء بك إلينا تُسْفَهُ
ضعفاننا وتغيّرُ أحوالنا؟! اعتزلنا إن كان لك بنفسك
حاجة ..)

ويهدوه المؤمنِ الواثقِ .. الذكيُّ الحكيم .. ردُّ عليه
(مصعبٌ) : "أو تجلس فتسمع .. فإن رضيتَ أمراً قبلته ..
وإن كرهته كَفَفْنَا عَنْكَ ما تكره" .

يا له من ذكاءٍ ومنطقٍ عاقلٍ .. لقد رأى (مصعبٌ) أن
العقلَ هو اللغة التي يجب أن يتحدثَ بها مع هذا العاقلِ ..
ولأنه واثقٌ من صدقِ دعوته .. فقد كان واثقاً من نجاح
مهمته ..

وأدار (أسيدٌ) الأمرَ في عقله .. فهذا غريبٌ عن ديارنا وله
عندنا واجبُ الضيافة .. ثم هو يدعوني لأسمع قبل أن
أصدرَ حكْمِي .. وهذه هي الحكمةُ وعينُ العقلِ ..

واستدَّ (أسيدٌ) حربته إلى الجدارِ وجلسَ يستمعُ إلى قولِ
(مصعبٍ) .. يسألُ ويسمعُ الإجابة .. ويديرُ في رأسه فيجد

منطق عقلاء وقول حكماء .. ويشرق النور في قلب (أسيد)
ويتهلل وجهه بالفرحة وينتج بالحديث إلى (مصعب بن
عمير) :

(ما أحسن هذا الكلام وأجمله .. كيف تصنعون إذا أردتم
أن تدخلوا في هذا الدين؟)

ويقفر قلب (مصعب) من الفرحة والرضا وبجيبه :
(تغتسل فتتطهر وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة
التوحيد .. وتصلي) وأسرع (أسيد) فاغتسل وطهر ثيابه
ونطق بالشهادة أمام (مصعب) الذي علّمه الصلاة .. وقام
الرجل ليصلي ركعتين مؤدعًا جاهليته مستقبلا أيام الإسلام
والتوحيد ..

ولنعد لتابعة هذا الصحابي العظيم (مصعب بن
عمير) .. فقد عاد مع قافلة النور إلى مكة .. وما أن دخلها
حتى أسرع إلى النبي بملا عينيه وقلبه من وجهه الكريم ..
راح ينقل إليه البشري .. فقد انتشر الإسلام في (يثرب)
وأعلن زعمائها وأشرفها وقادتها إسلامهم .. لقد ثبت
وجود الإسلام في (يثرب) ..

ويرجع (مصعبُ بنُ عميرٍ) إلى (يثرب) ليكونَ في استقبالِ رسولِ الله مع إخوانه من المسلمين الأنصار ..
وتسعدُ هذه المدينةُ المباركةُ بالنبيِّ المباركِ ويتغيرُ اسمُها إلى (المدينة المنورة) .. فهي حقاً مَثُورَةٌ بالنبيِّ (محمدٍ) ويصْحَبُه الكرام .. ويؤاخِي النبيُّ بين المهجرين والأنصارِ ويؤاخِي بين (مصعبٍ) وبين (أبي أيوب الأنصاري) ..

ويستقرُّ الحالُ بالمسلمين في المدينة المنورة .. لكن الغيظَ والحقدَ لا يهدآن في نفوسِ مشركي مكةَ فيجهزون لغزوِ المدينة أَمْلاً في تحطيمِ أركانِ هذه الدعوة .. ويلتقي الفريقان في (غزوة بدر) والتي كانت هزيمةً نكراءً للمشركين .. عادوا بعدها إلى مكةَ يجرّون أذيالَ الحيةِ والفضلِ ويندبون قتلاهم ويرسلون في فداءِ أسراهم..

كان (أبو عزيز) شقيق (مصعبِ بنِ عميرٍ) واحداً من حملةِ لواءِ المشركين في بدر وأسرهُ المسلمون . ولما عَلِمَتْ أمه بهذا دفعتْ له أربعةَ آلافِ درهمٍ فداءً .. وكان هذا أغلى فداءٍ قَدِمَ لفارسٍ من فرسانِ قريشٍ ..

لكن معركة (بدر) لم تكن نهايةَ الصراعِ العسكريِّ بين

المسلمين ومشركي مكة بل إنها أشعلت نارا الحقد في قلوبهم فجمعوا القبائل وجيشوا الجيوش وبالغوا في السلب وخرجوا يطلبون الثأر من المسلمين .

وكان اللقاء الثاني في (أحد) . يومها خرج المسلمون يدافعون عن (المدينة المنورة) عند جبل (أحد) . وأعطى رسول الله اللواء (لمصعب بن عمير) واثقا انه خير من يقاتل للحفاظ عليه . واصطف جنود الإسلام وطلب النبي من الرمة الصمود في أماكنهم حتى يعطى أوامره بغير ذلك . وتحقق النصر للمسلمين في أول المعركة وانسحبت جنود الشرك مخلقة ورائها الغنائم التي أغرت البعض بترك السلاح للظفر بها . ونسى بعض الرمة تعليمات رسول الله وظنوا أن المعركة قد انتهت لصالحهم فتركوا مواقعهم . ويتهم الكفار هذه القرصة ويعودوا ليهجموا على المسلمين هجمة راح ضحيتها سبعون شهيدا من خيرة صحابة رسول الله منهم (مصعب بن عمير) و(حمزة بن عبد المطلب) .

فكيف كان استشهاد (مصعب بن عمير) ؟

التفت مجموعة من الصحابة حول النبي يدافعون عنه وهم يعلمون أنه هدف لهُؤلاء المعتدين الأثمين .. وكان (مصعب) - حاملُ اللواء - هو أكثر الصحابة استماتةً في الدفاع عن النبي الذي آمن به .. وكان ينادي بأعلى صوتِه (وما محمدُ إلا رسولٌ قد خَلَّتْ من قبله الرسل) وقد أكرمه الله بأن جعلها نصًّا قرآنيًّا نزلَ به الوحيُّ ..

وتصدى أحدُ فرسانِ المشركين (لصعب) فلصَّابه في عنقه وقيل أن تسقط الراية تلقاها المؤمنُ الجاهد بيسراه .. فهجم عليه هذا الفارسُ فلصَّابٌ يُسراه .. ويحتضنُ (مصعب) الراية ضامًّا عليها أن تسقط ما دامَ في صدره قلبٌ ينبضُ .. ويتقضُّ الفارسُ المشركُ برمحه ليغرسه في جسم (مصعب) فيسقط شهيدًا محتضنًا رايته ..

وتنتهي المعركة .. ويقفُ الرسولُ عليه السلامُ ومعه صحابته وسطَ جثثِ الشهداء .. وتجري دموعهم أسفاً على فراقِ إخوانهم الجاهدين في سبيلِ الله ..

وتنتهمُ المستهم:

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ
مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾

[الأحزاب : 23]

ويجولُ الرسولُ عليه السلامُ ببصره بين صحابته ورفق
جهازه من الشهداءِ ويقولُ : "إن رسولَ الله يشهدُ أنكم
الشهداءُ عند الله يومَ القيامةِ" وأقبلَ على صحابته يقولُ :
"أيها الناس زوروهم وأتوهم وسلموا عليهم .. فوالذي
نفسِي بيده لا يُسَلِّمُ عليهم مسلمٌ إلى يومِ القيامةِ إلا ردُّوا
عليه السلامَ" .

ولما أراد أصحابُ (مصعب) أن يكفونوه في بُردته .. كانت
إذا غَطُّوا بها رأسه كشفتُ رجله ، وإذا غَطُّوا رجله
انكشفتُ رأسه . فقال لهم رسول الله : "اجعلوها مما يلي
رأسه" ثم نظرَ إلى وجه مصعبٍ وقد علاه الترابُ وقال :
"لقد رأيتك بمكة ، وما بها أرقُ حُلَّةٍ ولا أحسنُ لَمَّةٍ
منك .. ثم هاتئنا شعثُ الرأسِ في بُردٍ" . صلِّ رسول
الله .